الفصل الأوّل

حليم

والمدن الثلاث التي كان يحج اليها الناس

فقال له الشيخ وهل تقيم عندنا طويلاً يا بنيّ

فاجاب الشاب نعم ياعم فانني جئت من اقاصي البلاد لاشاهد المدن الثلاث التي سار بذكرها الركبان . وربما استغرقت اقامتي عندكم شهرًا على الاقل . لانني سازورها واحدة واحدة وابحث في شؤونها بحث مؤرخ دارس لا بحث متفرج

فتنفّس الشيخ الصعداء وقال . اف اف كم يزور الناس هذه المدن الثلاث . فهم يظنونها عجيبة من عجائب الدنيا مع اننا نحن لا نراها الاّ مدنًا كباقي المدن . انظر اليها اي فرق بينها وبين باقي المدن سوى قيامها في هذا السهل الفسيح بشكل مثلث

فنظر الحاضرون الى حيث اشار الشيخ فشاهدوا امامهم سهلاً فسيحًا لا يعرف الطرف آخره . وكان في هذا السهل ثلاثة بلدان جميلة البنيان محاطة من كل جهة بالحدائق والبساتين والحقول الصفراء من منظر الزرع تتخللها المواشي المختلفة وهي ترعى بحراسة فتيان وفتيات كانوا جالسين افرادًا وازواجًا وجماعات تحت الاشجار المثمرة او في ظل بعض السياجات

فقال الشاب بعد ان سرّح طرفه في هذا المنظر البرّي . حقًا انه منظر بديع

وكان المكان الذي يقيم فيه الشاب والشيخ مع بعض من الزائرين منزلاً صغيرًا في قرية صغيرة قريبة من « المدن الثلاث » وكانت هذه القرية في اول السهل على مقربة من

النهر الجميل الذي كان ينساب في السهل انسياب الافعى ليسقي زروعه واشجاره . وقد سمى الناس هذه القرية « الدخول » او قرية الدخول لانها المدخل الى المدن الثلاث ـ الى تلك البقعة التي كان يحسبها الناس جنة الله في ارضه

فبعد ان امعن الشاب النظر قليلاً في المدن الثلاث التفت الى الشيخ وقال : هل تعرف ياعم تاريخ تأسيس هذه المدن بالتدقيق

فاجاب الشيخ : كل الناس هنا يعرفون هذا التاريخ يابنيَّ لانهم لا ينسون ذكر ذلك الرجل الكريم والانسان الذي لا مثيل له بين البشر مؤسس هذه المدن ومنشئها . انظر الى تلك الحديقة البعيدة الكائنة في وسط المدن الثلاث . هذه حديقته وقد اقام لها فيه اهل هذه المدن تمثالاً عظيماً يحتفلون بتذكاره مرة في كل عام

فقال الشاب انك تتكلم عن المرحوم الشيخ سليمان فاحكِ لي قصته وقصة تأسيس هذه المدن من اولها

فسعل الشيخ قليلاً واصلح جلوسه فوق الوسادة ثم اخذ يقول

منذ نحو مائة سنة يا بنيَّ كان الشيخ سليمان فتى فقيرًا يتيماً يتجول في المدن يطلب عملاً . فذاق في صباه كل انواع العذاب في هذه الحياة . ومما كان يزيد عذابه نفسه الحساسة الكبيرة طبقاً لما قيل

وانعس الناس حالاً من تكون له نفس الملوك وحالات المساكين

ولكن يظهر ان العناية الالهية يا بنيَّ لا تخصُّ بعض هذه النفوس بالشقاء والنقم والعذاب الا لمقاصد سامية . فانه اذا كانت المصائب تسحق النفوس الصغيرة وتفلّ عزائمها فانها تشدّد عزائم النفوس الكبيرة لانها تعلّمها بالاختبار ما لا تتعلمه بسواه . فهي كالعود الطيّب الذي لا تنتشر رائحته الامتى مسته النار او كالزيت الذي لا يضيء الا بالاحتراق . وهذا ما جرى للشيخ سليمان . فانه بعد ان ذاق من مصائب الحياة ما ذاق في ابان الفقر والضيق لم تسمح له طبيعته الكريمة ان ينسى ذلك في ايام الثروة والرخاء

انَّ الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولذلك كان همه اول ما اثرى وجمع مالاً طائلاً ان يقوم بمشروع كانت تحدثه نفسه به منذ صباه فانه في ذات يوم اعلن في البلاد كلها اعلاناً غريباً ألصقه في الشوارع وفرقه في الناس وبعثره في الطرق والاسواق . ومحصل هذا الاعلان ان كل فتى وكل فتاة يجولان في الشوارع بلا شغل ولا رزق اذا قصداه فانه يعطيها شغلاً ورزقاً واسعاً . فلم يمضِ على

هذا الاعلان اسبوع واحد حتى بلغ عدد الفتيان الذين قصدوه ٣٢٤٥ فتى وعدد الفتيات ٣١٢٠ . فاشترى الشيخ سليمان هذا السهل الواسع الذي امامنا ومساحته ٥٠٠٠ فدان واسكن اولئك الفتيان والفتيات فيه واحضر لهم زراعاً وصناعاً يدربونهم على الزراعة والصناعة واقام منهم حكومة لهم وسن لهذه الحكومة قوانين وجعل فيها قضاة وجنداً ورئيساً اعلى . نعم ان ذلك كان مضحكاً في بدء الامر ولكنه لم يلبث ان صار جدياً مهماً . فان اولئك الفتيان والفتيات الفقراء الذين اجتمعوا من كل الجهات انتقلوا بهذه المعاملة من حالة الى حالة . فبعد ان كانوا مثلاً يجمعون اعقاب السكائر من الشوارع والاسواق ليبيعوها الى تجار الدخان او يطوفون المدينة بالنهار باثواب بالية قذرة يستعطون قوتهم او يطلبونه من فضلات المنازل في المزابل وفي الليل ينامون اكداساً اكداساً في زوايا الطرق على البلاط البارد حتى في اشد ليالي الشتاء برداً كانهم حيوانات لا بشر — صاروا يشتغلون بشرف واجتهاد في اماكن معدة لذلك ويلبسون من اجرة شغلهم ثياباً نظيفة ويتغذون باطعمة مغذية . ولم تعد ترى في عيونهم ذلك القلق الشديد الذي كان فيها حين كانوا في تيار تلك المعيشة الهائلة التي لا يكون فيها الانسان على ثقة حتى من بلغة يسد بها رمقه في المساء او في الصباح لتدوم له حياته . بل حل محل ذلك القلق طمانينة تامة لثقة ذلك العامل الصغير بان حياته صارت مضمونة . ولذلك صار يبتسم للحياة ابتسام الراحة والارتياح بعد ان لم يكن يبتسم من قبل الا ابتسام عدم المبالاة بشيء حتى بالحياة . ومما زاده راحة وسعادة حكومته نفسه بنفسه تحت مراقبة الشيخ سليمان وصيته . فانه لم يمر على هؤلاء الاولاد نحو سنة من الزمان حتى صاروا يشعرون بالتبعة التي عليهم ولذلك صاروا يراعون الحدود في سلوكهم . ومن هذا اليوم يبداء تاريخ نهوضهم من عثرتهم

فقطع الشاب كلام الشيخ وقال : اذاً اجداد سكان هذه المدن الثلاث كانوا من فضلات الازقة والشوارع

فقال نعم يا بني ولكن تذكر ان الورد لا ينبت الا من الشوك والنرجس لا يخرج الا من بصل . على اننا نحن سكان هذه القرية كنا نود لو اقتصر سكان هذه المدن الثلاث على المعيشة التي عاشها اجدادهم اولئك الفتيان العاملون لان في ذلك راحتنا من الاضطرابات والفتن التي قام قائمها بين السكان في الازمنة الاخيرة . فاولئك الفتيان كان لا هم لهم غير زراعة ارضهم واتقان مصنوعاتهم والمعيشة بسلام بعضهم مع بعض . اما اصحابنا هؤلاء فان دأبهم النزاع والخصام . فنعم الآباء ولكن بئس ما ولدوا

فقال الشاب وما سبب نزاعهم وخصامهم

فقال الشيخ : انت ترى يا بنيَّ ان هذه المدن ثلاث . فاحداها تُدعى مدينة المال لان اهلها كلهم يشتغلون بجمع المال . والثانية تدعى « مدينة العلم » لان اهلها كلهم يشتغلون بالعلم . والثالثة تدعى « مدينة الدين » لان اهلها كلهم منقطعون الى الدين . وقد حدث هذا الانقسام على ما ترى منذ زمن بعيد . فان اولئك الفتيان والفتيات الذين اسسوا هذه الجمهورية الصغيرة بعد اشتغالهم بزراعة الارض واتقان المصنوعات اصابوا نصيباً من الثروة والسعة . فلما تزاوجوا وتكاثروا جاء ابناؤهم ارقى منهم واكثر ميلاً الى الشؤون النفيسة . فعكف بعضهم على التجارة وبعضهم على العلم وبعضهم على الادب وبعضهم على الدين — كل بحسب استعداد نفسه وقابليتها . فلم يمر زمن طويل حتى قام النزاع بينهم على ساق وقدم . فارتأى بعض منهم زيادة في توسيع المعيشة على السكان ان ينشئوا بلدتين اخريين قريبتين من البلدة الاصلية . ثم رغبةً في حصر النزاع في مكان واحد او منعاً للنزاع قرروا ان تسكن كل طبقة في بلدة . فطبقة المال تسكن في البلدة الشرقية وطبقة العلم في البلدة الغربية وطبقة الدين في البلدة الجنوبية . ولكنَّ هذا التدبير قد ذهب سدى بلا جدوى لانَّ النزاع ما زال قائماً بينهم

الفصل الثاني

الحب

في قلب لم يعرف الحب

وكان الشاب الذي القى على عمه الشيخ تلك الاسئلة في نحو الثلاثين من العمر وقد جاء سائحاً لمشاهدة هذه المدن الثلاث التي سمع بها من بلده . وكان رجلاً قد درس علوم المتقدمين والمتاخرين ووقف على المبادىء القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة . فلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لان حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها وبناءها قائم على القوة والعنف . ولا المدنيات الحديثة كانت ترضيه لانها جعلت الحياة عراكاً هائلاً وجهاداً عظيماً بين الناس . وكان وهو في المدرسة قد لمح في ذهنه عصراً يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبي ويسميه كتاب المسيحية عصر الفردوس الارضي فبقي منه في فكره